سورة الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾

أَوْلِيَاءَ: أعوانا توادونهم وتناصحونهم.

أَن تُؤْمِنُوا: لإيمانكم أو كراهة إيمانكم.

يَثْقَفُوكُمْ: يظفروا بكم. أو يصادفوكم.

وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ: يمدوا إليكم.

عندما قرر رسول الله ﷺ غزو مكة في السنة الثامنة من الهجرة، وضع خطته بمنتهى السرية، حذراً من أن تتسرب الأخبار إلى قريش فيتأهبوا للمقاومة، وعندئذٍ وجه أحد الصحابة، وهو حاطب بن أبي بلتعة، وكان ممن شهد بدراً، رسالةً سرية إلى أهل مكة يخبرهم فيها بما عزم عليه الرسول، وقد أراد بذلك أن يصنع معهم جميلاً يرضيهم عنه فلا ينال بنيه وأقرباءه المقيمين بمكة منهم أذىً، ولكن الله - جلت قدرته - أعلم رسوله

بذلك عن طريق الوحي، فأرسل ﷺ من أدرك حامل الرسالة وانتزعها منه قبل أن يصل إلى مكة ..

إن كل عملٍ من هذا القبيل لا يتفق مع مقتضيات الإيمان بصورة مطلقة؛ فالصراع بين الإسلام وغير الإسلام إذا بلغ ذروته التي تتكون عندها جبهتان منفصلتان تحارب إحداهما الأخرى؛ فإن من واجب أهل الإيمان حينئذٍ أن يقطعوا كل ما يربطهم بالجبهة غير الإسلامية من صلات المودة أو التعاطف، حتى لو كانت الجبهة غير الإسلامية تضم أهلهم وذوي قرابتهم . إن الإيمان بالحق، وإقامة صلةٍ ما بالمناوئين للحق ضدان لا يجتمعان معاً في قلب واحدٍ !!

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ: قدوة حميدة في التبري من الضالين .

بُرَآءُ مِنكُمْ: أبرياء منكم.

وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا: إليك رجعنا تائبين.

لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً: مفتونين بهم معذبين بأيديهم.

عرض سيدنا إبراهيم عليه السلام رسالة التوحيد على أهل بيته أول الأمر بأسلوب النصح والموعظة ، ولكنهم لما أبوا عن الإيمان وأصروا على العناد والتعنت، رغم قيام الحجة عليهم، فارقهم معلناً براءته منهم بصيغةٍ حاسمة جازمةٍ ، بيْد أنها كانت مرحلة قاسية جداً ، فإن إعلان البراءة كان معناه دعوة أولئك الجاحدين المعاندين للحق ليتناولوه هو ومن آمن معه بكل ما يستطيعون من ألوان الأذى والاضطهاد ، ويلجأوا، بعدما انهزموا في مواجهة الدليل، إلى التنكيل بالمؤمنين وإذلالهم بوسائل القوة والقهر ، وهذا هو السر أن إبراهيم سأل الله بوجهٍ خاص وهو يدعوه بعد ذلك في ضراعةٍ قائلاً : ربنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا، أي لا تسلط الكفار علينا ولا تمكنهم من رقابنا ليتخذوا منا عرضةً لممارساتهم العدوانية الظالمة .

وإظهار البراءة من ذوي بالأرحام والأقارب ليس إظهاراً للعداوة بالمعنى المعروف، إنما هو تعبير نهائي حازم عما يتمتع به الداعي من ثقةٍ ويقينٍ، وعليه فإن تبرؤ الداعي هو الآخر يحمل في طياته جانباً من الأهمية الدعوية، إذْ يحدث أحياناً أن الشخص الذي لم يكن قد تأثر مطلقاً بلغة " النصح والبلاغ "، قد تنجح لغة " الثقة واليقين " في إثارة اهتمامه واجتذابه بالتالي إلى حظيرة الإيمان !

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩ ﴾

أَن تَبَرُّوهُمْ: تحسنوا إليهم وتكرموهم.

وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ: تفضوا إليهم بالقسط والعدل.

وَظَاهَرُوا: عاونوا الذين قاتلوكم وأخرجوكم.

أَن تَوَلَّوْهُمْ: أن تتخذوهم أولياء.

يأمر الإسلام أتباعه أن يتعاملوا مع الناس كافة بالعدل والإنصاف حيثما كانوا، وبغض النظر عما إذا كان الفريق الآخر من معسكر العدو أوْ غير العدو. أما صلة المودة والولاء فإنه لا يسمح بإقامتها مع كل أحدٍ دون تحفظٍ، وإنما تجوز الموالاة في أحد وضعيْن لا ثالث لهما : أن يكون مَن تواليه موالياً لله، أوْ لا يكون، على الأقل، عدواً لله !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

فَامْتَحِنُوهُنَّ: فاختبروهن وكان ذلك بالتحليف.

أُجُورَهُنَّ: مهورهن.

بِعِصَمِ الكَوَافِرِ: بعقود نكاح المشركات.

فَاتَكُمْ شَيْءٌ: انفلت أحد بردة.

فَعَاقَبْتُمْ: فغزوتم فغنمتم منهم.

تتناول هاتان الآيتان بالشرح بعض قوانين الإسلام المتصلة بالقضايا العائلية التي قد تنشأ بين دار الإسلام ودار الحرب في ظروف وملابساتٍ خاصةٍ، كالتي نشأت في أعقاب صلح الحديبية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

بِبُهْتَانٍ: بإلصاق اللقطاء بالأزواج.

يَفْتَرِينَهُ: يختلقنه.

تتضمن هذه الآية بيان الشروط التي لابد من إقرارها لأي امرأةٍ تريد الدخول في الإسلام، ومن بين هذه الشروط هناك شرطان أساسيان هما: عدم الإشراك بالله، وعدم معصية الرسول، وأما مطالب الدين الأخرى سواء المذكورة منها في هذا النص وغير المذكورة، فهي تندرج تلقائياً تحت هذين الشرطين الأساسيين!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

لاَ تَتَوَلَّوْا: لا تتخذوا أولياء.

قَوْماً: هم اليهود، أو الكفار عامة.

إن اليهود المؤمنين بالكتب السماوية، والكفار الذين لا يؤمنون بها إطلاقاً، كلاهما

سواء فيما يتعلق بالآخرة، فالكفار لا يعلقون رجاءً ما بالموتى لاعتقادهم أن أمرهم قد انتهى وأنهم لن يُبعثوا الآن من قبورهم مرة أخرى ، وهكذا يكون حال أولئك المؤمنين أيضاً الذين لا يلبثون أن يصابوا، على مر الزمن، بالغفلة والقساوة وبلادة الإحساس شأن اليهود، بحيث لا تعود حياتهم العملية - رغم إقرارهم بالآخرة بألسنتهم - تختلف عن حياة الكفار الصرحاء في شيءٍ !!